

البلاغة العربية بين الاجترار والوظيفة الجمالية
قراءة في كتاب نظرية البلاغة لعبد الملك مرتاض

Arabic Rhetoric Between Imitative Repetition and Aesthetic Function:
A Study of Abdelmalek Mortad's *Theory of Rhetoric*

دحمان إبراهيم*

جامعة وهران 1 أحمد بن بلة (الجزائر)

brdhte@gmail.com

تاريخ النشر: 2026/06/07

تاريخ القبول: 2026/05/07

تاريخ الاستلام: 2026/02/15

ملخص:

وضع البلاغيون الأوائل علم البلاغة من أجل رصد القيم البلاغية والأساليب الجمالية الكامنة في التعبير، لتمكين الناس من إتباع خطى الفصحاء والبلغاء، إلا أن المتأخرين من الكتاب جعلوا من علم البلاغة علما جامدا، يكرر الشواهد التي مثل بها المتقدمون، فماتت الأذواق وتبلدت الأذهان، وانفطم الخيال، نحاول في هذا العمل أن نلخص ما كتبه الدكتور عبد الملك مرتاض في هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: البلاغة - الجمالية - العربية - الذوق - الاجترار - القديم.

Abstract:

Early rhetoricians established the science of rhetoric in order to observe the rhetorical values and aesthetic styles inherent in expression, and to enable people to follow in the footsteps of eloquent speakers and masters of language. However, later writers turned rhetoric into a rigid discipline that merely repeats the examples used by earlier scholars. As a result, taste declined, minds grew stagnant, and imagination withered. In this work, we attempt to summarize what Dr. Abd al-Malik Murtad wrote on this subject.

Keywords: rhetoric – aesthetics – Arabic – taste – repetition – classical heritage.

1. مقدمة:

نشأت البلاغة العربية في أكناف الدراسات القرآنية، إذ كان الشغل الشاغل لعلماء اللغة البحث في الظاهرة القرآنية وفهم أسرارها، والتوصل إلى أسباب الإعجاز فيه، فمنذ أن ظهر مصطلح النظم إلى الساحة البلاغية، وقيام الجدل حول الإعجاز اللفظي والإعجاز المعنوي للقرآن، ازدهرت الدراسات البلاغية وعرفت تطوراً مستمراً، اللاحق يواصل ما ابتدأه السابق، إلا أن علم البلاغة في العصر الحديث عرف خمولا وعجزاً، فغدا تكرر للدرس الأول، وعليه بنيت بحثي هذا على الإشكالية الآتية: هل يمكن للدرس البلاغي أن يواكب الدراسات الحديثة؟ سعت إلى حصر الأسباب التي جعلت من البلاغة العربية فناً جامداً، ينفر منه الناشئة، واتّبع المنهج الوصفي الذي من خلاله تطرقت إلى ما ذهب إليه الدكتور عبد الملك مرتاض من رؤى واقتراحات، وختمته بجملة من النتائج والتوصيات.

2. البلاغة بين النشأة والتطور:

1.2 . البلاغة في التراث العربي:

دأبت العادة أن يكون لكل علم إرهاصات أولية، ثم تليها المحاولات الأولى لبناء القاعدة الأساسية له والتنظير العام، ثم يختتم بالتقعيد والتمام، والبلاغة العربية هي الأخرى نشأت في أحضان الدراسات اللغوية القرآنية ابتداءً، إذا لم تنشأ كعلم مستقل متكامل، بل كان يشار إليها في ومضات ولطائف صغيرة، فطوال القرون الأولى كان الشغل الشاغل هو مسألة إعجاز القرآن، وألف في هذا الميدان الكثير من العلماء الأفاضل، إلا أنه لم يكن هناك من صنف في البلاغة وجعلها علماً خاصاً، " فلم يفكر أحدٌ من أوائل البلاغيين في تأليف كتاب إذا استثنينا عبد الله بن المعتز في كتابه البديع "

¹، وقد تناول موضوع الإعجاز الجاحظ في مقولته المشهورة " المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير الألفاظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير "² والمسألة تطرق إليها واستفاض فيها من بعده كل من الرمازي (386هـ) في كتابه النكت في إعجاز القرآن إذ يقول: " وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في حسن صورة من اللفظ "³ كما فصل فيها القول أيضاً الخطابي (388هـ) في كتابه بيان إعجاز القرآن، ثم بعدهما الباقلاني (403هـ) في كتابه إعجاز القرآن، " والحق أن الرمازي يتبوأ في حقل البلاغة الإعجازية المكانية الأولى إذ هو أكبر مؤسسيها "⁴، فجّل ما تم دراسته ومناقشته كان يهدف للبحث عن إعجاز القرآن الكريم، وهي بذور أساسية مهدت للدرس البلاغي لاحقاً.

وثقل عن القراء أنه كان يعترض على القراء الذين يحذفون الهمزة ويضعون مكانها الياء أو الواو ويحركونها بحركة تناسبهما ويصفهم بأنهم فرّوا من ثقل إلى أثقل منه، ذلك أن تحريك الياء والواو أثقل من ترك الهمزة⁵

ويمكن اعتبار هذه الملاحظات الصوتية والتقويمات تتم عن الحس المرهف للفراء: "وكان بعض ذلك تمهيدا لميلاد بلاغة عربية تعني بالبرهنة على الجمال الفني العظيم للنص القرآني"⁶ ومنه انتقل البحث إلى النصوص العربية من نثر وشعر واستخرجت منه القواعد البلاغية وأسست النظرية البلاغية العربية.

2.2 القرآن الكريم المعجزة الحية

نبتغي وراء هذا النسق -القرآن الكريم المعجزة الحية- الإشارة إلى المحرك الذي دفع بعلماء اللغة العربية إلى تحريك عجلة الدراسات العربية قديما، وكذا السر المكنون الذي مازال يروي القلوب والأفئدة، ويلهم الأقلام والكتبة، لا يقتصر الأمر في حدود اللغة، بل يتعداها إلى العلوم الاجتماعية والاقتصادية والفلسفية والعلوم التجريبية، فكل عالم إلا وينهل من فيض بحر هذا القرآن، لما ضمه بين دفتيه من حقائق ودقائق، إذ تراه كل حين يتجلى عن معارف وعلوم جديدة، فقد: "نزل بلغة العرب، وطرائقهم في التعبير والبيان، ولن يفهمه أو يتذوق أسرارها أو يستشعر جماله وبلاغته الرفيعة أو يقف على إعجازه وتميزه من كلام البشر من كان ضعيف الحظ من العربية، غير متضلع منها"⁷، لذا كان القرآن ولا يزال البؤرة التي نقلت العلوم العربية إلى منتهى الكمال، وبه يستشهد النحوي والصرفي، وعليه يقيس الفصيح والبليغ، وإليه يحتكم الفقيه والمتعبد، والحافظ له يصون لسانه من الزلل واللعن، والمتدبر فيه يفهم الكون والعوالم الأخرى.

وكان العرب الذين نزل فيهم أهل لسن وبيان، وفصاحة وكلام، كما كانوا على حس مرهف، وذائقة متميزة، فهم لذلك أقدر الناس على معرفة قدره والتنبيه على علو كعبه في سلم البيان⁸، فأمن منهم من اعترف وأنان، وأجحد من استكبر واستدبر، وهو في قرارة نفسه معترفا بإعجازه ونزاهته، مستمتعا بسماعه، ومتذوقا للحنه وبيانه.

القرآن الكريم المعجزة الحية، معجزة باقية ببقاء الأكوان، لا يتعلق بزمان ولا مكان محدد، أعجز الأولين واللاحقين، مهما كتب عنه أو ما استنبط منه من علوم سيظل معجزا ومنجما ونهرا يروي الأفئدة ويشع النور في القلوب، فهو بحق معجزة حية يعيش بيننا، فقد كان تعامل المشركين الأوائل معه يختلف عن تعامل من أتى بعدهم، رغم ما يميزهم من براعة في اللغة من فصاحة وبيان وحسن القول، فقد تحداهم ودعاهم صراحة إلى الإتيان بمثله إن استطاعوا، "ولكن القرآن كان عاليا غاليا، كان يسحر الجميع وكان سحره لا يقاوم، ونفوذه لا يرد، ثم مضى يتحداهم، أي يدعوهم إلى مباراته ومجاراته"⁹، فلم يقدر الأوائل على تحديه ولا مباراته، بل اعترفوا واغترفوا، اعترفوا بقداسته نصه، وسمو معانيه وقدره، واغترفوا من بحر علومه، واغتنموا من جليل مضامينه وسرده، وهو باق بيننا ميدانا للتدبر والتأمل، فهو معجزة مستمرة باقية، معجزة حية مادمت الأكوان والأفلاك تدور، وما مادمت الكلمات والألسن تعبر وتسطر.

3.2 . من الإعجاز إلى البلاغة:

أشرنا سالفاً إلى أن البلاغة لم تظهر كعلم مكتمل قائم بذاته، بل مرّ بمراحل وجهود متتابعة، فيرى عبد الملك مرتاض أن الباقلاني لم يزد شيئاً عن الرمازي ما عدا في التفصيل على ما كان أنجزه فأوجزه، فالرمازي مفكر بلاغي كبير ومنظر للكلام من الطراز الأول¹⁰

وينتهي إلى التقسيم الثلاثي للبلاغة: الطبقة العليا يمثلها القرآن الكريم، ولا يمكن لأحد أن يصلها أو يقاربها، أما الدرجة الثانية ممثلة في البلاغيين الذين يحسنون اختيار الألفاظ ليوصلوا المعنى إلى القلب، فالبلاغة عند الرمازي لا تكمن في اللفظ لوحده ولا في المعاني، فهو أول من حصر مكونات البلاغة في عشر مكونات: (الـإيجاز، التشبيه، الاستعارة، التلاؤم، الفواصل التجانس التصريف، التضمن، المبالغة، حسن البيان)¹¹

أما الخطابي يتفرد حقاً بفكرة يبدو أنها كانت تدور في نوادي بعض المتجربين على عهده، وقد كان الفكر العربي الإسلامي على غاية من التفتح والازدهار، وهي أن من الناس من يعترض على ترتيب موضوعات القرآن، فيأتي الخطابي بأقوالهم فعلاً أو افتراضاً ثم يرد عليها واحداً واحداً بأقوى حجة وأسطع برهان¹²

كما يرى عبد الملك مرتاض أن الخطابي أخذ عن الرمازي وذلك للتشابه الموجود لديهما في كتابيهما في تعريف البلاغة وتقسيمها إلى ثلاثة أقسام، وكذا الأمثلة المقدمة من طرفهم، والآيات المستشهد بها، فيرجح أن الرمازي هو السباق بحكم كبر السن، وعلة الإشكال هو من الأخطاء المنهجية التي كانت قديماً، وذلك بعدم ذكر فضل الأوائل والإشارة إليهم¹³

نستخلص مما سبق أن المسألة الإعجازية ظهرت قبل تأسيس البلاغة العربية، وأنها هي التي وراء تأسيس علم البلاغة على أيدي رجالات فكر كبار منهم عبد القاهر الجرجاني قبل أن تنتهي إلى أبي يعقوب السكاكي الذي حاول بلورتها في نظريات وقواعد بلورة نهائية.

فلوما الاحتجاج لإعجاز القرآن، ولولا الانتصار لجمالية نسجه العظيم، وأنه يستميز به عن بقية الكلام الذي تعارفه الناس وتدارسوه في آثار العرب من خطب وأشعار ونصوص أخرى لكان شأن البلاغة في الفكر الثقافي العربي شيئاً آخر، ذلك بأن الكتاب كانوا يجهدون مزابهم إجهاداً، وكان البلاغيون والمتكلمون يعنتون قرائحهم إعناتاً من أجل البرهنة على أن النص القرآني، كما هو فعلاً مختلف كل الاختلاف عن بقية النصوص الدنيوية مهما يُمثل نسجها، ويفتح كلامها، ولكي يتمكنوا من تقرير تلك الحقيقة الإعجازية كان لا مناص لهم من التزود بأدوات إجرائية تظاهروهم على انجاز ذلك، فكانت تلك هي أدوات البلاغة، وقد لاحظ الرمازي أن مظاهر الإعجاز تمثل في سبعة أطوار¹⁴، فهو بذلك يبدو هو أول من أسس للمسألة الإعجازية تأسيساً نظرياً صارماً.

3 البلاغة المعاصرة:

1.3 علاقة البلاغة العربية بالأسلوبية المعاصرة:

تطرق عبد الملك مرتاض في الفصل الثالث من كتابه نظرية البلاغة إلى موضوع الميراث البلاغي في المفاهيم السيمائية، إذ بنظرة متفحصة في الموروث البلاغي العربي نجد الكثير من المسائل البلاغية والمفاهيم التي ألف فيها المتقدمون بأسماء متنوعة مفهوماً يتطابق مع ما هو موجود اليوم في النظريات الغربية الحديثة، ففي كثير من الأحيان تختلف الأسماء وتبدل إلا أن المعنى لا يتغير، أو يتغير نسبياً لا أكثر، وسنشير إلى جملة من تلك الجهود والقضايا على النحو الآتي:

- قضية السرقات الأدبية التي سالت حولها الكثير من الأقلام، وألفت فيها المدونات، وتُخصّ فيها الشعر العربي تححيصاً، ما هي في جوهرها سوى مسألة التناسية، التي تميزت فيها الفرنسية جوليا كرسيفا في اللسانيات الحديثة.

- قضية اللفظ والمعنى، ومن الثنائيات الشهيرة التي جاء بها دي سوسير وأحدثت ضجة في الساحة اللسانية، ثنائية الدال والمدلول، وهي نفسها قضية اللفظ والمعنى، التي نالت حظاً وافراً في الدرس البلاغي القديم بين أنصار اللفظ وأنصار المعنى، ودارت في فلك الإعجاز والبحث عن سرّ إعجاز القرآن الكريم.

- مصطلحي البديع والمعاني في البلاغة العربية، وهو ما يعرف حديثاً بالمصطلح الجديد الأسلوبية، وقل إن أردت إلا قالها للتعبير، فليست أسلوبية هذا الزمان إلا ما كان يعرف تحت مفهوم البديع والمعاني في البلاغة في العهود الغابرة، وتعد فكرة النظم وإرجاع الإعجاز البياني إليها من أكثر الأفكار تداولاً بين علماء البلاغة والباحثين في أسلوب القرآن الكريم وإعجازه، ولعل الجاحظ هو أول من تحدث عن النظم وأرجع الإعجاز إليه، بل ألف في ذلك سماه (نظم القرآن) ولكنه كتاب ضاع لم يصل إلينا.¹⁵ وهذا دالٌّ على فطنة الجاحظ وبراعته الفريدة في التأليف واللغة البديعة التي تميز بها، وقدرته العجيبة في الأخذ باللغة وحفظه العجيب، واستحضاره الكثير من الأقوال.

- ومن العلوم القديمة الحديثة أيضاً، علم المعاني، وهي أصول وقواعد يعرف بها أحوال الكلام العربي التي يكون مطابقاً لمقتضى الحال، بحيث يكون وفق العرض الذي سيق له، وموضوعه اللفظ العربي من حيث إفادته المعاني المقصودة، وفائدته معرفة إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصه الله به من جودة السبك وحسن الوصف، وبراعة التراكيب ولطف الإيجاز، وما اشتمل عليه من سهولة التركيب وجزالة كلماته، وعذوبة ألفاظه وسلامتها إلى غير ذلك من محاسن التي أقعدت العرب عن مناهضته وحارت عقولهم أمام فصاحته وبلاغته والوقوف على أسرار البلاغة والفصاحة في منشور كلام العرب ومنظومه، كي تحتذي حذوه، وتنسج على منواله، وتفرق بين جيد الكلام ورديئه.¹⁶

-الانزياح والعدول، مصطلح الانزياح هو الأسير بين الناس وهو الأسلم لغويا ويدل على انحراف المتكلم أو تجانف الكاتب عن المألوف المتداول في الاستعمال الأسلوبي إلى شيء آخر، الانزياح لا يقوم في مجرد الاختصار على المروحة بين استعمال الضمائر المختلفة داخل كلام واحد، ولكنه يجاوز ذلك إلى التوسع غير المحدود في التعامل مع اللغة الأدبية في أسلوب الكلام¹⁷

والأسلوب الأدبي هو الذي يعادل الانزياح الأسلوبي، وهو اللمسة الفردانية والإنتاج المغاير الذي يميز كل إنسان عن البقية. فالانزياح هو الصفة التي تميز كل كاتب عن آخر، فتراه يتلاعب بكلمات اللغة ويخرجها عن الإطار المعروف المتداول بين الناس، ويكسر الرتبة العتيقة إلى أشكال جديدة توقظ السامع وتلفتته، كل ذلك بأسلوب جميل ونظام لغوي صحيح فصيح لا يخرج عن القواعد اللغوية، به يتفاوت الناس ويتفاضل الخطباء، تسمو اللغة إلى درجة عالية مغايرة للغة البسيطة والنسج السهل المتواضع، فينتج انتهاكاً وخرقاً لنظام اللغة.

-التداولية ومعنى المعنى، انتقل هذا المصطلح من القارة الأمريكية الشمالية إلى العالم العربي، ويعني في معناه طريقة أداء الكلام، فالتداولية كمفهوم موجود عند البلاغيين القدماء العرب، إلا أنه ليس بهذا المصطلح وإنما كان في إطار السياق بنوعيه الخارجي والداخلي.

- الأسلوبية والبديع، علم البديع من العلوم البلاغية العربية التي عكف البلاغيون على دراسته والإكثار من التأليف فيه، فالموجود اليوم في الأسلوبية الحديثة ما هو إلا استكمالاً لما توقفت عنده النظرية العربية في علم البديع، إذ الفردية والتميز في طريقة الكلام والبراعة في نظم الكلام وحسن ضم الكلمات المناسبة بما يتوافق مع حمل المعاني وإفهامها للسامع بطريقة جميلة، مع ما يصاحبها من إيقاع وجرس موسيقي، هو مكن علم البديع والأسلوبية.

إذ الأسلوب يكتسب خصائص جمالية منفردة متباينة من شخص لآخر، فقد يطغى على نص ما أنواع بديعية متنوعة ترتقي به إلى منزلة عالية، تحمل الرسالة البلاغية بشكل كاف، ناقلة لمشاعر المخاطب محافظة على وجدانه وتدفق أحاسيسه المضطربة، وفي استقبال وتلقي ذلك الخطاب تلامس روح المرسل إليه.

وهذا ما ينبغي للبلاغة أن تهتم به، لتعوّد القارئ على هضم النصوص الجميلة، ومحاولة السير على نحوها في التأليف والسرد، وليس الاكتفاء بحفظ أمثلة مكررة أكل عليها الدهر وشرب.

2.3 البلاغة العقيمة:

شنّ الدكتور عبد الملك مرتاض هجوماً على البلاغيين، القدامى منهم والمحدثين، وذلك لعدم تكلفهم البحث في الاستشهاد بنصوص كثيرة للتمثيل للقيم البلاغية، وكذا لإتباع بعضهم بعضاً في الأمثلة نفسها، فلقد "حنط البلاغيون طائفة من التشبيهات والاستعارات، فاختصوا بها أشياء وقيماً لا يكادون يجاوزونها إلى سوائها، فاغتندت كالقواعد المتبعة مما حدّ من حرية التشبيه، وضيق من رحابة الخيال، فإذا المرأة الحسناء كالقمر أو كالشمس ولا تكون غير ذلك شأننا"¹⁸.

لا تخلو دفاتر تلامذتنا أو كتبنا المدرسية من هذه الأمثلة والشواهد، فكأن التشبيه كله في قولهم (جميلة كالقمر)، أو (محمد شجاع كالأسد)، فلو غيّرت المثال وطلبت من التلميذ استخراج الصورة البلاغية الواردة فيه بقي عاجزاً نافياً أن يكون في الجملة تشبيهاً أو صورة بلاغة، والعجب العجيب أن هذه الأمثلة والشواهد ترافق تلامذتنا طيلة مساهمهم الدراسي حتى تخرجهم من الجامعة.

هذا ما يذكرنا بالطلبة حينما تطلب منهم تقديم جملة فعلية، يبادر الطالب المجّد منهم بقوله: (أكل محمد التفاحة)، أو (دخل الطالب إلى القاعة)، فكأن الأمثلة انتهت، فتوقف الإبداع والخيال، مع أن الأرض رحبة واسعة والفضاء واسع شاسع والإنتاج متواصل.

فأصبحنا ندور في حلقة تعيد نفسها بأمثلتها وذوقها المألوف، حتى تبلّدت الأحاسيس وتجمّدت النفوس، "فلو شبه شاعر عربي المرأة الجميلة بالليل مثلاً لكانوا نعوا عليه سلوكه ولقضوا بأنه سيء الذوق، بل ربما عدّوه محروماً أو مريض الإدراك"¹⁹، لذا مازلنا نردد أمثلة أوردها ابن المعتز ومن جاء بعده، الذين بدورهم اكتفوا بما قدمه، كأن البلاغة هي تلك الشواهد فقط.

واجب علينا اليوم أن ندفع بالطلاب إلى الإبداع وترك العنان لأفلامهم، والسرّح بمخيالهم، وكسر حدود أفق التوقع، إذ "إن الاختصار على تشبيهات معينة يرثها الأواخر عن الأوائل هوّ مما أفسد الأخيلة، وحد من رحابة الإبداع، وأفضى إلى ما كان القدماء يطلقون عليه السرقات الشعرية"²⁰، فضع الكثير من الجهد في البحث عن الجمال الفني في إنتاج المتأخرين.

3.3 . التكرار في الشواهد البلاغية:

حينما نبحت في كتبنا البلاغية،- سيما الحديث منها-، ونتفحص الشواهد الواردة فيها، فإننا نلاحظ أن هذه الشواهد البلاغية أصبحت تعليمية قبل كل شيء، تأتي بالبيت الشعري وتشير إلى مكن البلاغة فيه، بأن تقول هذا تشبيه أو هذا جناس تام، فهي تعول على ما كان انتهى إليه ابن المعتز من قبل، فأمست تشبه الشواهد النحوية التي تتكرر كثيراً في كتب النحو في القديم والحديث منذ أن أسسها سيبويه في الكتاب، فكان بديع ابن المعتز في البلاغة بالقياس البلاغيين يماثل الكتاب لسيبويه في النحو بالقياس إلى النحاة، تتمثل بأبيات الشعر أكثر مما تتمثل بالكلام المنشور الذي يفتقر في أغلب أطواره إلى الشعرية الطافحة والتكثيف العميق، فكأن البلاغة مقتصرة على الشعر، مع أن الأكثر انتشاراً وما هو مشترك بين الناس هو الكلام المنشور، فلم الاستغناء عنه، والاكتفاء بالشعر،

ولكننا لاحظنا أثناء ذلك شيئاً آخر ربما لم ينبه إليه أحد قبلنا أو نبّه إليه ولكن فاتته تدوينه، وهو أن البلاغيين العرب ظلوا آخرهم يرددون النماذج النصية التي اهتموا إليها أوائلهم سواء علينا أكان ذلك متمحصاً للصورة البلاغية التي ولدت في آيات من القرآن الكريم أو في أبيات من الشعر كلف البلاغيون بتردادها دون التفكير في السعي إلى البحث عن نصوص أخرى يستنبطون منها أحكامهم البلاغية ويجرون عليها تطبيقاتهم²¹،

فقد ولدت البطون من الكتاب الأفذاذ والخطباء المفوهون ما شاء الله لهم من الإنتاج الأدبي الرفيع الشيء الكثير، حريّ بنا أن نستشهد بأقوالهم، ونحلل إنتاجهم، فيكون مثالا لطلبتنا، ونستشهد بنصوصهم في مدارسنا فيحفظها التلاميذ لتستقيم ألسنتهم.

4.3. الصورة البلاغية العقيمة:

قد يكون أول المسؤولين عن فساد الخيال العربي وجنوحه للعقم وميله إلى التقليد ومجانفته عن التجديد هم علماء البلاغة الذين حنطوا هذا الفن بمحاولة تصويره علما كالنحو: مع أن وظيفة النحو هي حفظ اللسان من اللحن، في حين أن البلاغة ليست غايتها حفظ اللسان من العجمة، ولكنها تربيته للذوق وكشف لجماليه الخطاب الأدبي ابتغاء معرفه أدبية الأدب التي ظل رومان ياكبسون يبحث عنها فلم يهتد إليها سبيلا، ولا رأى الوجه فيها فتिला، فمات وهو في نفسه حسرة منها كما مات سيويوه وفي نفسه شيء من حتى.

يخلص عبد الملك مرتاض إلى حصر جملة من الأسباب التي رأى حسب اجتهاده أنها ساهمت في عقم البلاغة العربية ونزلت بها هذه المنزلة منها:

1 الكلف بترداد النماذج الشعرية والثرية الرفيعة التي كان استشهد بها أول مرة عبد الله بن المعتز، كما وقع استنساخ الشواهد التي جاء بها الرماني والخطابي من بعد، فعزفت الأذهان عن قراءة النصوص الأدبية الرفيعة واجتزأت بتكرار تلك الأمثلة التي كان الأوائل اهتموا إليها فحسب.

2 الحرص على تععيد التقاليد التعبيرية التي وصفت بالبلاغية وتحنيطها بحيث لا ينبغي لأحد أن يفكر في مجاوزتها أو الخروج عن معالمها، فعزف المتعلمون عن حفظ أجمل الآثار الأدبية من أجل اكتساب الفصاحة وامتلاك البلاغة إلى حفظ تلك القواعد والاجتزاء بها في حياتهم التعليمية، وكأنهم يحفظ مصطلحاتها، واستيعاب ضوابطها المدرسية كانوا يستطيعون أن يكونوا من أكبر البلغاء وفطاحل الفصحاء الأئنياء.

3 لقد أفضت هذه السيرة إلى ما أفضت إليه سيرة مدرسي النحو في الجامعات التقليدية، فقد كانوا يستوعبون قواعد النحو استيعابا دقيقا من الوجهة النظرية فكانوا يتكلفون حفظ ما ورد في كتاب سيويوه ومغني ابن هشام ثم ما جاء في ألفية ابن مالك خصوصا، لكنهم حتى إذا جاؤوا يتحدثون حديثا أو يكتبون طومارا، توقف بهم الحمار في العقبة.

في حين أن الأوائل حين تناول البديع وما أضيف إليه وما عمق به وما وسع فيه لم يكونوا يتقصّدون إلى تلك المبالغة في لوك تلك الشواهد الشعرية الجميلة لكي تغتدي مجرد نماذج منقطة فقدت كثيرا من بائها البلاغي، وروائها البياني.

4 - كنا نود لو أن الأجداد أحسن الله إليهم عنوا بتقديم النماذج الرفيعة من الشعر العربي إلى الناشئة ليحفظوها ويستوعبوها فتعيها قلوبهم، وتمثل بجمالية نصوصها أذواقهم فتفحل لغتهم إذا تحدّثوا، وتأنق أساليبهم

إذا كتبوا أما أن تستحيل البلاغة إلى مجرد قواعد عقيمة تدرس خارج النصوص الأدبية الكلية للنصوص المجزئة فذلك مما أفسد الأذواق وأفضى إلى عجمة الألسنة في المشرق والمغرب .

4. خاتمة:

ختاماً بعد هذا البحث حول قضية البلاغة العربية، انطلاقاً من دراستنا لكتاب نظرية البلاغة للدكتور الراحل عبد الملك مرتاض رحمه الله عليه، خلصنا إلى جملة من النتائج والتوصيات نجلها فيما يلي:

- نشأت البلاغة العربية انطلاقاً من البحث في قضية إعجاز القرآن الكريم، هذه القضية التي ناقشها العلماء في مجالسهم، وتدارسها الطلبة في كتاباتهم، بعد أن أعجز القرآن الكريم الإنسان العربي، اندهش بهذا الكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فبقي الجاهد متفرجاً مندهشاً غير قادر على الإتيان بمثله، فجاءت فرقة المعتزلة التي رأت أن القرآن عجز بالصرفة، فلن يستطيع أحد المحاولة لمجاراته، إلا أن هذا الرأي قوبل بالرفض من قبل البلاغيين الذين رأوا الإعجاز يكمن في الألفاظ، ومنهم من رأى الإعجاز يكمن في المعاني التي جاء بها.

- تعاقبت الجهود البلاغية اللاحق يأخذ عن السابق، إلى أن اكتمل الدرس البلاغي نظرياً وتطبيقاً.

- الكثير من الأمثلة والشواهد التي جاء بها المتقدمون مازالت موجودة في كتبنا استغنى بها المتأخرون ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أمثلة جديدة من النصوص المعاصرة.

- غدا الدرس البلاغي كالنحو، من خلال تركيزه على الحفظ، ففقد القيم الجمالية التي نشأ من أجلها، فلم ينتج لنا أدباء، ولا خطباء بلغاء، بل أصبح الطالب يحفظ الأمثلة ليعيد استرجاعها في الامتحان، بضاعتنا ردت إلينا.

- حرّينا أن نعيد للبلاغة العربية قيمتها، والهدف الأسمى الذي قامت من أجله، ليتذوق الناشئة النصوص البلاغية القديمة، بدءاً من القرآن الكريم، والشعر العربي الفصيح، والكلام المنثور، ولا يكون حفظاً للأمثلة وشواهد مقطوعة الصلة، بل لنصوص طويلة، مكتملة، حتى يحسن الفهم، ويقدر على الاستيعاب واستخلاص الجمال فيها.

- ضرورة التنبيه إلى الإنتاج الجديد الذي كتبه فطاحل الأدباء كالإبراهيمي وغيرهم، لدراسته وحفظه، ولتكون الأمثلة حديثة مواكبة للعصر، ولا يُقتصر على الشعر الجاهلي لمسائل حديثة، ليعيش الطالب التجربة.

- الاعتزاز بالميراث العربي وإعادة بعثه وتحليله من أجل تيسيره وهضمه، وعدم الاكتفاء بما ورد إلينا من الحضارة الغربية، مع البحث عن أوجه التشابه والاختلاف، والأخذ بعين الاعتبار مميزات كل حضارة وخصائص كل لغة.

5- الهوامش:

- ¹ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 95
- ² الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1969، ص132. ط2، 1965،
- ³ أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح عبد العليم، مكتبة الجامعة المالية الإسلامية، 1994، ص12
- ⁴ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 98
- ⁵ يراجع إبراهيم محمد عبد الله، نظرات في كتاب معاني القرآن، مجمع اللغة العربية، دمشق، 2003، ص368.
- ⁶ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 97
- ⁷ وليد إبراهيم قصاب، الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011، ص 38
- ⁸ وليد إبراهيم قصاب، الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011، ص 21
- ⁹ وليد إبراهيم قصاب، الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011، ص 21
- ¹⁰ يراجع عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 98
- ¹¹ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 100
- ¹² يراجع عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 102
- ¹³ يراجع عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 107-108
- ¹⁴ يراجع عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 122-123
- ¹⁵ وليد إبراهيم قصاب، الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011، ص 97
- ¹⁶ يراجع السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط1، بيروت، 2010، ص 35
- ¹⁷ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 147
- ¹⁸ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 208
- ¹⁹ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 209
- ²⁰ عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 210
- ²¹ يراجع عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 193

6. قائمة المراجع:

- عبد الملك مرتاض، نظرية البلاغة، دار القدس العربي للنشر والتوزيع، ط1، وهران، 2010، ص 95
- الجاحظ، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1969، ص132. ط2، 1965
- أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح عبد العليم، مكتبة الجامعة الملكية الإسلامية، 1994، ص12
- إبراهيم محمد عبد الله، نظرات في كتاب معاني القرآن، مجمع اللغة العربية، دمشق، 2003، ص368.
- وليد إبراهيم قصاب، الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، دار الفكر، ط1، دمشق، 2011، ص38
- السيد أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط1، بيروت، 2010، ص35